﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

ومحمد ﷺ يقول فى محاورته مع كفار مكة : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم فى استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيُسمِّى إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾

خشى فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص] يعنى : إياكم أنْ تصدِّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيرى .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما بها أحد . [لسان العرب ـ مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالى . [القاموس القويم ١/٣٧٢] وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنَى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨) ﴾ [القصص] وفي موضع آخر قال : ﴿ يَـٰهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧) ﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضي قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفَّهم ولعب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨) ﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾

أى : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمته ذاتية فيه ، أمَّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، كما يقولون (اللى يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك فى دواعى الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان ... إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول فى الحديث القدسى :

« الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[1] .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوى) فى ظل كبرياء الله الذى يحمى تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لَتكبَّر بشىء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبُّرت عليه ، ويجعله أعلى منك . وعندنا فى الأرياف يقولون : (اللى يرمى أخاه بعيب لن يموت حتى يراه فى نفسه) .

والمتكبِّر فى الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده فى الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش فى ظلاله

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق - تبارك وتعالى - نفسه بأنه العظيم المتكبِّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾ [القصص] فاستكبارهم فى الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ - كما نقول - لهم رَجْعة .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ (١) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) ﴾

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ .. (٤٠) ﴾ [القصص] أى : جميعاً فى قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [القصص] ألقينا بهم فى البحر ، وهذا الأخذ الذى يشمل الجميع فى قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوى العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

---

(١) أى : طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يُقال له : إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبى ٧/٥١٧٥] والقلزم هى مدينة السويس حالياً ، وبحر القلزم : هو البحر الأحمر .

ولم يُوصَف أَخْذ الإنسان بالقـوة إلا في قوله تعالى[1] يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿ خُذُوا ما آتَيْنَاكُم بِقُوَّة .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [القصص]

أي : نهايتهم وقد جاءت عجـيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبـحر والماء جُنْد من جنود الله ، تـنصر الحق وتهزم البـاطل ، وقد ذكرنا كـيف أنجى الله موسى ـ عليه السلام ـ وأهلك فـرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جـازه موسى وقـومه إلى الناحـية الأخـرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخـرى ؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقـه فيُصحِّح الله له ويأمـره أنْ يدَعَهُ على حـاله ، فـالحق ـ تبارك ـ وتعـالى ـ يتـابع نبيـه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

وحاشـا لله أن يُكلِّفه بأمـر ثم يتركـه ، ولما رأى فرعـون الطريق اليابس أمامه عـبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فـصاروا آية وعبرة ، كمـا قال سبـحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .. (٩٢) ﴾ [يونس]

وتأمَّلْ قـدرة الله التي أنجَتْ مـوسى من الغرق ، وقـد ألقـتْه أمـه بيديها في الماء ، وأغرقتْ فرعون .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) ﴾

(١) وكذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] . يقول صاحب ظلال القرآن (٤/ ٢٣٠٤) : « قد ورث يحى اباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة » .

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا في الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبِّهه وأن يُذكِّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له في الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين في الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى في حَقِّ نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وعندها أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة في ذريته من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا في أهل الخير ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك لما دعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة في الشر ، كهذه التي نتحدث عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ .. (٤١) ﴾ [القصص] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء في الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٦١) ، وابن ماجة في سننه (٢٠٣) من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه .

ويقول تعالى فى أصحاب القدوة السيئة : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]

فكان فرعون وملؤه أسوة فى الشر ، وأسوة فى الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون فى الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص]

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ .. ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] يعنى : جعلنا من خلفهم ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً .. ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] فكل مَنْ ذكرهم فى الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾﴾ [الطور]

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أى : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أى : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية فى جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص] أى : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس]

ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦)﴾[آل عمران]

ويقول : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه]

ومعلوم أن زُرْقَة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومن أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهى أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبَخيلِ عَلَى أمْوالِه عِلَلٌ ... زُرْقُ العُيونِ عَلَيْها أوْجُهٌ سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك نقول فى لغتنا العامية : (العفاريت الزرق) ونقول فى الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر(١) :

أيَقْتُلُنِى والمَشْرَفِىُّ(٢) مُضاجِعى ... ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ(٣)

---

(١) الشاعر : هو امرؤ القيس .

(٢) السيوف المشرفية منسوبة إلى قرىً من أرض اليمن ، وقيل : من أرض العرب تدنو من الريف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

(٣) قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان) (٦/١٥٨) تحقيق عبد السلام هارون : « الأغوال : اسم لكل شىء الجن يعرض للمسافرين ويتلوّن فى ضروب من الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » . والبيت فى ديوان امرىء القيس ٣٣ ، والكامل للمبرد (٢/٧٩) ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى ـ ص ١١٢ .

أما السواد فيُقصد به الوجه المشوَّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيراً ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى ـ عليه السلام ـ جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقى من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى ـ عليه السلام ـ برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل فى مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى فى مسألة القتال فى عهد موسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] إنما فى عهده وعصره ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :
- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فألقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٢] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[١]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله - يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول - يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فلَهُ أجران - أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى - له ما لنا وعليه ما علينا »[٢] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ .. (٤٣) ﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٤٣) ﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٠٨/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٨/٧) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) ﴾ [القصص]

والتذكر يعنى : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهى ليست جديدة عليك ، هذه القضية هى الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : فى الفطرة السليمة المركوزة فى كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. (٤٤) ﴾ [القصص] أى : الجانب الغربى من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذى كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] يعنى : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها فى كتب السابقين .